هواجس..

قصة بقلم سميرة عزام

كانت تتوسل وهي تنفض عنها الغطاء ان تطرد هذا الألم الذي يقبض على نفسها باصابع سوداء ويأكل طمأنينة قلبها الصغير ، ويثبت امام عينيها تلك الصورة الفظيعة التي تصدت لها ككابوس شرس .

ولم تغنها انتفاضتها شيئاً ، فالوجه ما زال معلقاً امامها وحدها ، فرفيقاتها مستغرقات في نوم يؤكده شخير يفسد عليها ان تتألم في هدوء ، كأن الكابوس تآمر عليها من دونهن ، وجعل من ليلتها فريسة له .

واحست بانها تكرههن ، تكره وجوههن التي تحدد ملامحها خطوط يابسة يحار بينها الجذل والالم .

ولم تحتمل الظلمة التي تضيع معها ابعاد القاعة التي تتسع لاكثر من عشرين سريراً توزعت في نظام لا تفسده همهمة واحدة متى جاءت المراقبة تطفيء النور وتامر اليتيمات بان ينمن حالا .

وظلت جالسة في سريرها تحاول ان تتحدى الصورة ولكن تلك لم تمح ، لم تغب لحظة واحدة ، وقد انحطت عينها على الوجه الشمعي ذي الفم المحشو قطناً والعينين الزجاجيتين نصف المفتوحتين .

لم تعرف الا اليوم ان الموت يمكن ان يكون قبيحاً منفراً رهيباً .

لا ، ما هكذا كان وجه امها ، كان مأنوساً حتى يكاد يبتسم ، تكاد تنفرج شفتاه لتنشر با دموعها .

ما كان احلى امها ، حتى ميتة !

في الصباح كانت ما تزال مشغولة بالمعاونة في غسل اطباق طعام الافطار من بقايا دبس العنب ، حين جاءت احدى الرفيقات تقول في لهجة لا تلونها عاطفة ما ، بان الميتم مدعو لجنازة . ولم تفهم ماذا تقصد الفتاة حتى ما قبل الغداء ، حين وقفت البنات حول الموائد الخشبية الطويلة يقلن صلاة يفسدها الجوع لم تفهم منها شيئاً ، رغم انها تقال مرات عديدة في اليوم ، حين جاءت المعلمة ونبهت بضرورة اسراعهن في الطعام حتى يدركن موعد الجنازة .

هنا فقط جرؤت ان تسأل جارة اجابتها وهي تدفع بملعقة الحساء الى فمها الكبير بأن غنياً مات وقد دعا اهله بنات الميتم ليشيعنه .

وسكتت رفيقتها ، وكفت هي عن سؤالها اذ رأتها مشغولة بتمزيق استدارة الرغيف الاسمر .

وبعد الغداء رأتهن يحملن الى المطبخ اطباقهن الفارغة التي مسحنها حتى بدت كالمغسولة ، ففعلت مثلهن ثم تبعتهن الى الغرفة ولبست لاول مرة المريول الأزرق وكان طويلا ، ولكن المعلمة قالت بانه سيكون مناسباً اذا ما استطال جسمها بعد عام او عامين ، ثم علقت به شارة الميتم وحشرت عنقها في ياقة منشاة ، ولبست الحذاء السميك النعل ووقفت في طرف الغرفة تنتظر ما وراء ذلك حتى جاءت المعلمة وامرتهن بالاصطفاف في الفناء ، وهناك بقين واقفات ثلث ساعة ثم تحركن ...

في الطريق لم تحاول ان ترفع رأسها ، فهكذا اوصت المعلمة ، ولكنها سمعت الناس يتساءلون وقد شاهدوا الموكب الازرق الواجم من يكون الميت ، ففهمت بان الفتيات لا يتخطين عتبة الباب الكبير الا اذا كان هناك موتى ..

ومرة اخرى انتصبت في فراشها .. ووضعت كفيها على اذنيها فلا تسمع ذلك الصراخ الرفيع الذي قابل به اهل الميت دخول الفتيات .. والذي عصر قلبها واغرق وجهها بالدموع .

وتمردت لاتريد الدخول ..كانت لا تعرف بعد ان تقول صلاة ما .. ولكن المعلمة لكزتها وامرتها بطرف اصبعها ان تقف كرفيقاتها حول الميت.. فلهذا جئن ..

وكان مكانها عند الرأس .. صورة للموت قبيحة ، لا تغير الزهور المنثورة الكثيرة شيئاً من قسوتهـــا ..

حين ماتت امها لم تكن هناك اكثر من وردة واحدة حمراء قطفتها من الاصيص الوحيد الذي على شرفة بيتهم ، واراحتها على صدر امها .. كان مـا يزال حاراً يخفق ، ولذا رفضت ان تصدق ان امها يمكن ان تموت ، صحيح ان اباها قد مات ، ولكنها لا تعرفه . كان معقولا عندها ان يموت الاباء .. اما ان تموت امها ..

ولكنها اليوم تعرفت على الموت ، ملأت رائحته خياشيمها .. بخور وزهور ورائحة اجساد اجهدتها استثارة اللواعج .. وشمعتان يحتضر لهبهما ، واحدة عند الرأس والاخرى عند القدمين ، وتابوت بارد مفتوح في زاوية الغرفة .. ووجه شمعي اصفر له عينان من زجاج وفم محشو قطناً .

وسحبت الوسادة من تحت رأسها ، وضغطت بها على وجهها لتطرد الصورة لحظات ، فقد كان فظيعاً ان تقضي ليلتها تقابل ذلك الوجه الذي زاحم وجه امها .. ليتها ترى امها ، فهذه لا تظهر لها الا ضاحكة حانية . مرة قبلتهـــا واعطتها شيئاً ما نسيت ما هو حين كان الصباح ، ومرة جاءت الى جانبها ، وجلست تحدثها حتى انها قامت تفتش عليها ، فقد بدا لها ان امها قد عادت الى الحياة فعلا ، ولم تر في الامر معجزة ، فطالما سمعت حكايات عن موتى يدفنون احياء ، ولما افضت الى جدتها بهواجسها ، صلبت هذه وقالت -- ان امك يا بنتي ليست مسيحاً . اذا زارتك في ليلة قادمة فاقرئي لروحها صلاة .

اذن فموت امها حقيقة لا تغير منها زيارات الاطياف .. وحتى هذه انقطعت منذ جاءت الميتم ، فروح امها لا تحوم في مكان غريب والا لزارتهـــا الليلة وخلصتها من هذه الصورة التي تطبق على نفسها فتنتف طمأنينة قلبها الطفل.

وظل رأسها تحت المخدة لا تدري الى متى ، فهي قد نامت اخيراً لتفتح عينيها على وجه جارتها الكبيرة الفم تقول لها في غير ابتسام : « قومي فنحن نهض في السادسة ، ان الفتيات كدن ينتهين من ترتيب الاسرة » . فقامت تنفض الملاآت وتفرشها من جديد ، ثم تمضي الى حيث بللت وجهها بالماء قبل ان تمشي في الطابور الى قاعة الأكل ، فتجلس ساهمة لا تمد يدها الى الدبس والزيتون ، ثم يخطر لها ان تسأل : « هل يذهب الميتم الى الجنازات دائماً ؟ » فتسمع صوت جارتها يخرج من خلال لقمة كبيرة : « مرتين في الاسبوع او ثلاثاً .. او حتى اكثر ، نحن نروح كلما دعينا ، فالادارة تقبض نقوداً لهذا ، والا فكيف يصرفون علينا ؟ ؟ كلي كلي ، الا تحبين الدبس ؟ اذا كنت لا تشتهين فهاتي نصيبك هاتي » ! !

سميرة عزام